تعددت الالوان والنور واحد

بقلم : حسن المسعود

منذ العصور القديمة بحث الفنان عن جوهر المادة الملونة، وعن مقاومة الالوان للنور، وتأثير النور والالوان على العين، بينما ان علماء النفس يدرسون رمزية الالوان وتأثيرها على اللاوعي.
حسب قول العلماء ان عيوننا يمكنها ان ترى حوالي ثلاثة الآف لون. ولكل لون موجات ذات طول مختلف. وتوصل العلماء لمعرفة طول الموجات التي ترسلها الالوان. كالموجة الطويلة والتي تثير الاحساسات والتي تعطي اللون الاحمر، والموجة المتوسطة التي تعطي اللون الاخضر، والقصيرة التي تعطي اللون البنفسجي.
ومن الدراسات القديمة للفنانين ما تكلم عنه الفنان الايطالي ليوناردو دافنشي في القرن السادس عشر اذ قال :

لو تأخذ شريط ابيض وتضعه في مكان مظلم ثم تضيئه عبر ثلاثة ثقوب، ثقب مضاء بالشمس، وآخر بضوء النار، وثالث بضوء النهار. فأن هذا الشريط سوف يأخذ ثلاث الوان مختلفة.

وقد أدرك ليوناردو دافنشي ان اهتمام الفنان بالالوان، انما يفتح له ابواب عديدة، ابواب فسيحة وجديدة. فأن وضع لون على اللوحة يتطلب توافقه مع الالوان التي تجاوره. فاللون الابيض عندما يجاور احد الالوان فانه يعطي قوة لذلك اللون. بينما ان الاسود يقلل من قيمته، والرمادي يجعله أكثر وضوحا.

الالوان التي نراها في اللوحات انما تعيش في احساسات الفنان الداخلية قبل كل شيء. ولكن ماهو مصدر هذه الالوان؟ كيف تكونت، ومن اين تاتي؟ وبأي حالة تمر؟ ماهي تحركاتها؟ أو نشاطاتها قبل ان تكون في شكل اللوحة.
هل انها تسكن في اماكن بعيدة في الاعماق، ندعوها عند الحاجة فتأتي؟ او انها تنمو ببطيء كالبذرة وتتغذى من قوى غامضة؟

من الاكيد ان الالوان التي يستعملها الفنان في عمله الفني تكون آتية من الطبقات السفلى للوعي البشري. مما يجعل الافكار العقلانية متعكرة امامها ولا تعرف الاجابة الواضحة لكل هذه التساؤلات.
ذهن الفنان هو الذي يستمر في تربية هذه الذاكرة المغمورة للخروج على اللوحة، ولو ضمن احاسيس مبهمة محاطة بالشك.
ماهو لغز الالوان؟ الالوان كأحاسيس ورؤى، والالوان كمادة على اللوحة؟

عند التكلم عن الالوان كأحاسيس وتخيل أرى من الضروري مشاركة الشعراء العرب. اللذين ذكروا الالوان في صورهم الافتراضية. وسأعطيهم مكانا في هذه الصفحات عبر بعض الابيات الشعرية التي مزجت الالوان بالأحاسيس. لوحات خيالية من رسم الشعراء. لوحات يتلقفها ذهن السامع ويراها في تخيلاته.

البحتري**في حلةٍ خضراء نمم وشيها   حوك الربيع وحلةٍ صفراء**

اللون هو ابن النور، والنور هو اساس كل شيء حي على الكرة الارضية. فالالوان ماهي الا احساس يرتبط بطبيعة الحاجة المرئية والضوء المسلط عليها، ثم تنقل العين هذه المعلومات الى الدماغ.
ان كانت الالوان انطباعات اولاً، فأنها استخدمت فيما بعد للتعبير عن الفرح أو الحزن. ثم اصبحت كرمز للشعوب والاديان. وهكذا ان الالوان تلعب دورا مهما في حياتنا، وهي ضرورة نفسية ايضاً.
كانت الالوان في البداية مجال بحث الفنانين، ثم أصبحت فيما بعد من اهتمام العلماء، ابتداء من القرن السابع عشر.
كل الاوراد في الظلام تكون سوداء، فالظلام هو انحسار النور. وبمجرد ادخال النور عليها سوف نرى الوانها المتعددة.

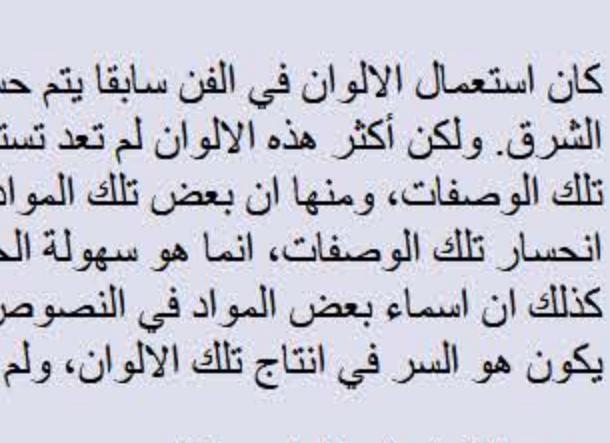

كان استعمال الالوان في الفن سابقا يتم حسب وصفات تتناقل من جيل لآخر. وصفات آتية من الحضارات القديمة في الشرق. ولكن أكثر هذه الالوان لم تعد تستعمل في يومنا الحاضر ولاسباب عديدة. منها ندرة المواد الاولية المستعملة في تلك الوصفات، ومنها ان بعض تلك المواد سامة ويحضر استعمالها في عصرنا الحالي. وربما يكون السبب الرئيسي في انحسار تلك الوصفات، انما هو سهولة الحصول على الالوان الصناعية في الزمن الحديث.
كذلك ان اسماء بعض المواد في النصوص القديمة لم تعد معروفة، وكان ينقص الوصفات القديمة دائما شيء واحد، قد يكون هو السر في انتاج تلك الالوان، ولم يكن يعطى هذا السر سابقا بسهولة لمن يبحث عنه.

بعض الالوان في الماضي كانت مخصصة لكبار شخصيات الدولة ولا يمكن لغيرهم استعمالها في ذلك الزمن. ففي الدولة الرومانية مثلا كان لون ملابس بعض الشخصيات الكبرى هو احمر ارجواني، ويقال ان الامبراطور نيرون كان يحكم بالموت لمن يستعمل هذا اللون او يشتريه، ان لم يكن من الشخصيات الكبرى.

وللحصول على غرام واحد من هذا اللون، كان يجب تحضيره من عشرة الآف قوقعة بحرية، وعند سقوط الامبراطورية الرومانية بقي استعمال هذا اللون عند الامبراطورية البيزنطية حتى القرن الخامس عشر.

الصنوبري**وشقائقٌ مثل المطارف قد بدت حُمراً   وقد جُعل السوادُ كتابها**

مصادر الالوان عديدة، منها تكون مستخرجة من النباتات، وأخرى مصدرها الحيوانات. وقسم كبير منها يستخرج من الارض.

استعمال الالوان عند الشعوب المختلفة كان انعكاس لأفكار واحاسيس داخلية للافراد. ومن بعض الرموز التي اعطتها بعض الشعوب للألوان وكمثال فان اللون الذهبي وهو ايضا لون الشمس يرمز للطهارة والارتفاع عند المصريين القدماء، وهو لون آله الشمس، ويرمز كذلك الى الحنطة لأنها تعطي الحياة للبشر. ونفس اللون في الهند كان يرمز الى الحقيقة. وعند الاغريق كان يرمز الى العقل والخلود. وعند البيزنطيين كان يرمز الى سماء الجنة.
اللون الاحمر : رمز عالمي للدم والنار، وكذلك للطاقة في الجسم وللانفعالات، كذلك انه لون الحرب والعنف.
اللون الازرق: يرمز للسلام والذكاء والتأمل، كذلك يرمز للسماء والفضاء الفسيح. ويغطي اللون الازرق باب عشتار في بابل، وجدران بعض المعالم الاسلامية. ويستعمل اليوم في علم اوربا.

البحتري   **وأزرق الفجر يبدو قبل اشهبه**

اللون الاسود: يرمز الى الحزن وغراب الشؤم، ويستعمل ايضا بكثرة في الملابس والسيارات الانيقة. وكان فورد صاحب مصنع السيارات بنفس الاسم يقول لمن يريد ان يشتري احدى سياراته: بامكانكم اختيار اي لون تريدونه لسيارتكم شرط ان يكون اللون الاسود.
اللون الابيض: يرمز الى النقاء والحمامة البيضاء.
اللون الاخضر: يمثل الامل، ينبوع الحياة والقوة النباتية، ونراه كذلك في بعض المعالم الاسلامية.
اللون الاصفر: يرمز في أوربا الى الجبن، بينما عند البوذيين يرمز للتواضع وترك الماديات.
وهكذا نرى ان الالوان هي ظاهرة ثقافية واجتماعية ترتبط بحياة البشر، ولا يمكن فصلها عن المكان والزمان.
ان ترتبط الشمس عند اكثر الشعوب باللون الاصفر واللون الذهبي. فأن الارض تعطي كذلك لون تراب اصفر يرمز للصحراء والجفاف.
في القارة الاسيوية يستعمل اللون الاصفر بكثرة. في الهند للزواج، ويمثل الصحة والثراء وكثرة الاطفال. وفي الصين لون الامبراطور هو لون العسل.

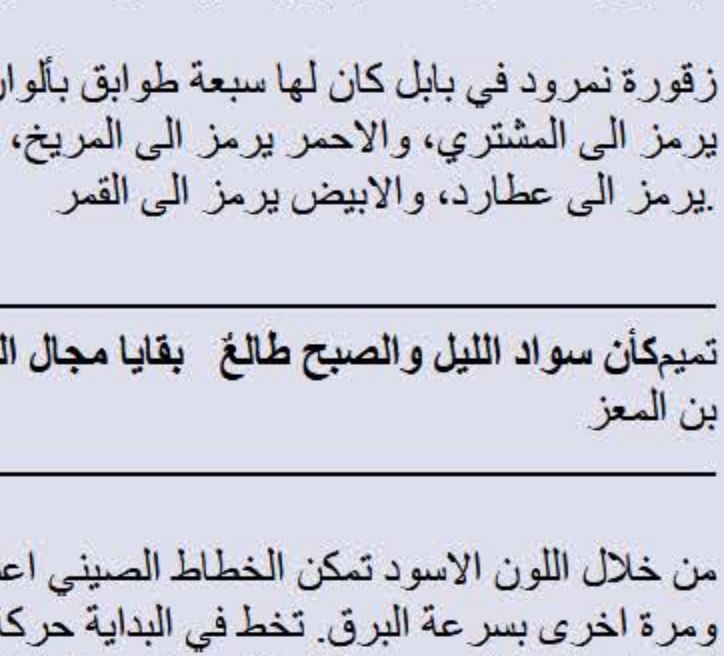

كل شخص يمتلك عالما من الالوان تحسسها منذ الطفولة، ونسي هذه الاحاسيس في وعيه الداخلي. ولكن هذه الذكريات المنسية تبقى تؤثر على الانسان واختياراته بشكل غير مباشر. فأن زرقة السماء الصافية تجعلنا نعيش ذكريات الهدوء، وغروب الشمس الاحمر يبهرنا. بينما ان الاصفر الذهبي يمكن ان يهدئ من انفعالاتنا.

زقورة نمرود في بابل كان لها سبعة طوابق بألوان مختلفة، وكل طابق يرمز الى كوكب. الاسود يرمز الى زحل، والبني يرمز الى المشتري، والاحمر يرمز الى المريخ، والاصفر يرمز الى الشمس، والاصفر الباهت يرمز للزهرة، والازرق يرمز الى عطارد، والابيض يرمز الى القمر.

تميم**كأن سواد الليل والصبح طالعٌ   بقايا مجال الكحل في الاعين الزرق**
بن المعز

من خلال اللون الاسود تمكن الخطاط الصيني اعطاء عدة الوان في خطوطه. فأن فرشة الخطاط تتحرك مرة ببطيء ومرة اخرى بسرعة البرق. تخط في البداية حركة سوداء عريضة كصخرة كبيرة وثقيلة، وتنتهي بسرعة في خط بما تبقى في الفرشة من حبر قليل ناعم رفيع. وان تبتديء الحركة بكل الحبر الاسود الغامق، فأنها تتدرج مع السرعة ونفاذ الحبر الى رمادي يغرق في الفضاء الابيض للورقة.

هنالك لونين كانتا ولازالت من أغلى الالوان: وهي اللازورد واللون الذهبي. اللازورد هو حجر ازرق استعمل منذ حوالي 5 الآف سنة، ومصدره افغانستان. وكان يمثل اللون الرسمي لفراعنة مصر وملوك فرنسا.
يطحن اللازورد على الصخر، ويضاف اليه الخل والصمغ العربي، ثم يوضع في اناء مليء بالماء. يحرك ثم يترك فتهبط ذرات اللون نحو الاسفل، ولابد من الانتظار حتى يكون الماء صافيا، فيرمى الماء، وتعاد هذه العملية عدة مرات.

اما تحضير اللون الذهبي فيكون اولا بتحضير قطعة ذهب نقية، توضع بين قطعتين من الجلد، وتضرب حتى تتحول الى ورقة رهيفة. تخلط هذه الورقة الرهيفة مع الصمغ العربي في اناء من الخزف، يضاف اليها الماء الصافي، وتخلط بين اصبعين، ويستمر الخلط باضافة الماء، ثم تترك حتى يهبط الذهب الى الاسفل، وأخيرا يرمى الماء، ليبقى الذهب كعجينة، ويضاف اليها الماء والصمغ لتكون كالحبر للخط.

صفرةٌ من الشمس فأخضَر اخضراراً مشعشعاً   وقد ضربت في خُضرة الرَوض
ابن الرومي

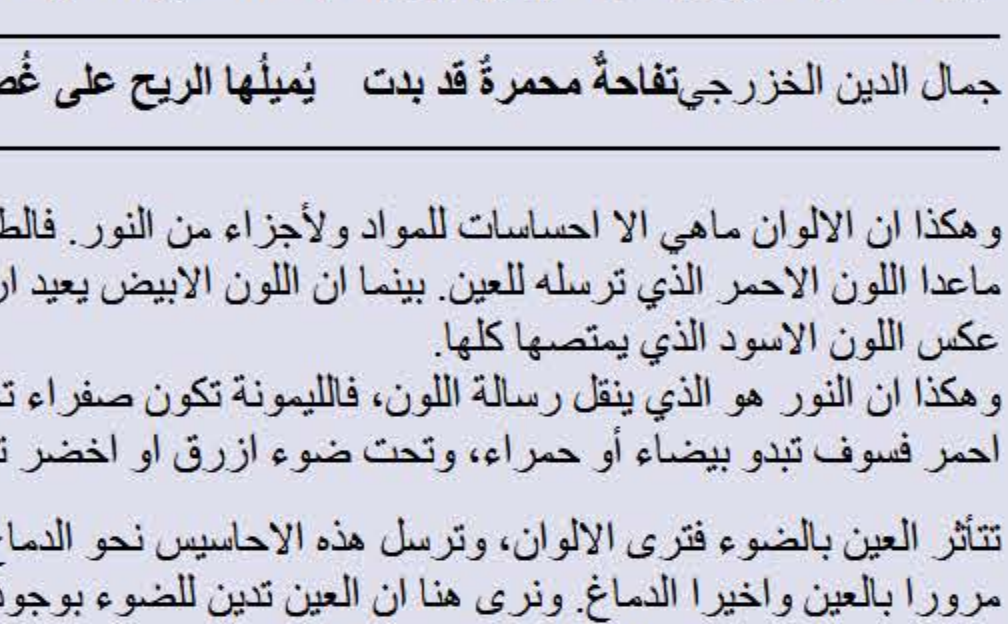

قيمة كل لون على اللوحة تأخذ اهميتها حسب الالوان التي تجاوره. فأن الاحمر يجلب العين بينما الاصفر الفاتح يجرح العين. اللون الازرق يتقدم وبجانبه اللون الرمادي يتراجع.
عند بقاء الانسان في غرفة مظلمة لاترى عينه فيها الالوان. ولكن الخروج ورؤية صفحة ناصعة البياض تجعلنا نغمض العين امامها. وتدريجيا ترى العين الالوان، وهكذا ان سبب حضور وغياب الالوان هو النور. ولكن النور نفسه مكون من مجموع انوار ملونة. وبدون ضوء لاتوجد الوان. والالوان ماهي الا تحولات الضوء. وهكذا عند التكلم عن الالوان لابد من التكلم عن النور قبل كل شيء. فأن الوان مانسميه - قوس قزح - هي الوان المنشور الضوئي. وهي تملك موجات مختلفة لكل لون.
في عام 1669 اكتشف **العالم اسحاق نيوتن** ان الضوء الابيض هو نتيجة اشعاعات ملونة للمنشور. فعندما يخترق ضوء الشمس المنشور الزجاجي يتحول الشعاع الابيض الى الوان عديدة، هي الاحمر والبنفسجي والبرتقالي والاصفر والاخضر والازرق.
الالوان الاساسية هي ثلاثة: الازرق والاحمر والاصفر، اما الالوان المكملة فهي الاخضر مكمل للأحمر، البرتقالي مكمل للأزرق، البنفسجي مكمل للأصفر. وباختلاط هذه الالوان فيما بينها نصل الى اعداد لا نهاية لها من الالوان.
عين الانسان لا ترى بشكل اعتيادي الوان الطيف الشمسي الا من خلال تمريرها عبر بلورة لتحليل الطيف الشمسي.

جمال الدين الخزرجي**تفاحةٌ محمرةٌ قد بدت   يُميلُها الريح على غُصنِ**

وهكذا ان الالوان ماهي الا احساسات للمواد ولأجزاء من النور. فالطماطة مثلا تبدو حمراء لأن مادتها تستلم كل الالوان ماعدا اللون الاحمر الذي ترسله للعين. بينما ان اللون الابيض يعيد ارسال كل الاشعاعات الضوئية التي يستلمها. على عكس اللون الاسود الذي يمتصها كلها.
وهكذا ان النور هو الذي ينقل رسالة اللون، فالليمونة تكون صفراء تحت ضوء النهار، ولكن عندما نضعها تحت ضوء احمر فسوف تبدو بيضاء أو حمراء، وتحت ضوء ازرق او اخضر تبدو بنية اللون.

تتأثر العين بالضوء فترى الالوان، وترسل هذه الاحاسيس نحو الدماغ الذي يفسرها. وهكذا ان رؤية اللون تتم عبر النور مرورا بالعين واخيرا الدماغ. ونرى هنا ان العين تدين للضوء بوجودها.
عند توجيه الضوء نحو الاشياء فأن هذه الاشياء ترسل ذبذبات حسية لمعرفة اللون، وهذه الذبذبات تكون غير مرئية، كما الهواء الذي نتحسسه ولا نلمسه.

ابو حامد**فالطل منحدر والروض مبتسم   عن اصفر فاقع أو احمر قاني**
الانطاكي

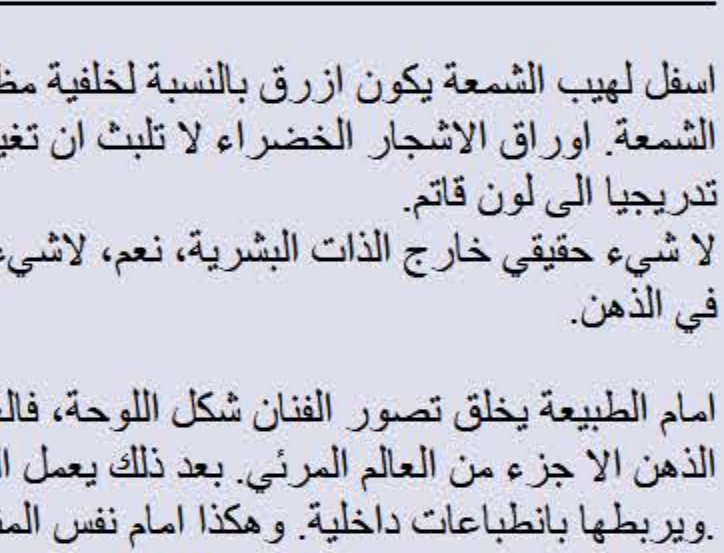

وضع مربع رمادي على ورقة بيضاء يبدو اكبر من مربع رمادي على ورقة سوداء. وهكذا ان الضوء يتجاوز الحدود الحقيقية في المساحات الفاتحة. اذ يمكن للألوان ان تلعب دوراً في الفضاء، فيمكن لبعض الالوان من تكبير المساحة الفاتحة، والوان اخرى يمكن ان تصغره.
تبدو الالوان دائما حسب اهمية الضوء، وكل لون هو في علاقة مع الزمن ايضا. فان المادة اللونية هي ظاهرة متحولة مع تحول الزمن. لذلك تتطلب الالوان البحث المستمر لمعرفة جوهرها.
ضوء النجوم في يوم متعكر ومتلبد بالضباب والغبار يتحول الى لون مائل للاصفرار. وعند مغيب الشمس وبنفس الاجواء يتحول شعاع الشمس الى لون احمر.

ما أصفَر وجه الشمس عند غروبها   الا لفرقة ِ حُسنِ ذاك المنظر
ادريس مرج الكحل

اسفل لهيب الشمعة يكون ازرق بالنسبة لخلفية مظلمة، ولكنه يتحول الى لون ابيض عندما نضع ورقة بيضاء خلف لهيب الشمعة. اوراق الاشجار الخضراء لا تلبث ان تغير لونها عند قطعها. وان وردة حمراء تفقد لونها بعد ايام وتتحول تدريجيا الى لون قاتم.
لا شيء حقيقي خارج الذات البشرية، نعم، لاشيء حقيقي الا بتوافق الاحاسيس مع الذهن البشري، انذاك تولد الصورة في الذهن.

امام الطبيعة يخلق تصور الفنان شكل اللوحة، فالعين البشرية لا تستطيع النظر الى كل التفاصيل المرئية. ولا ترسل الى الذهن الا جزء من العالم المرئي. بعد ذلك يعمل الذهن الصور ولا يهتم بكل ماترسله العين من اشكال انما ياخذ قسم منها ويربطها بانطباعات داخلية. وهكذا امام نفس المنظر سنرى من فنان لأخر الوان لاتتشابه.

تميم بن المعز**من أحمرٍ قانٍ على اخضرار   وأبيض قد لاح في اصفرار**

الالوان المائية تسمح برؤية ما هو خلف اللون، اي لون الورقة، مما يجعلها تعطي الايحاء بان النور هو قيمة اللون.
ومصدر الالوان المائية يكون آتيا من خلط مسحوق ملون ناعم مع ماء وصمغ عربي.
بينما ان الالوان الزيتية تكون قد عملت من نفس المسحوق الملون ولكن مع مادة دهنية وصمغ.

الوان الاكريليك، تكون على نوعين، الاول: يكون بمزج مسحوق ملون مع الماء لعمل عجينة ثم يضاف اليها مادة صمغية تسمى الاكريليك وهي مستخرجة من النفط وهنا تكون المادة الصمغية هي التي اعطت الاسم للالوان.
النوع الثاني من الوان الاكريليك يكون باستعمال الوان سائلة مبتكرة كيمياويا بدل المسحوق الملون، وتخلط هذه الالوان بصمغ الاكريليك. وان هذه الالوان هي نتيجة بحوث علمية على الالوان، ويمكنها تقليد كل الدرجات اللونية. لكنها قليلة المقاومة للنور وتبهت وتختفي مع مرور الزمن. وتكون فقيرة المظهر في العمل الفني، ولا تحتوي على الندرة التي تتصف بها المساحيق الملونة.

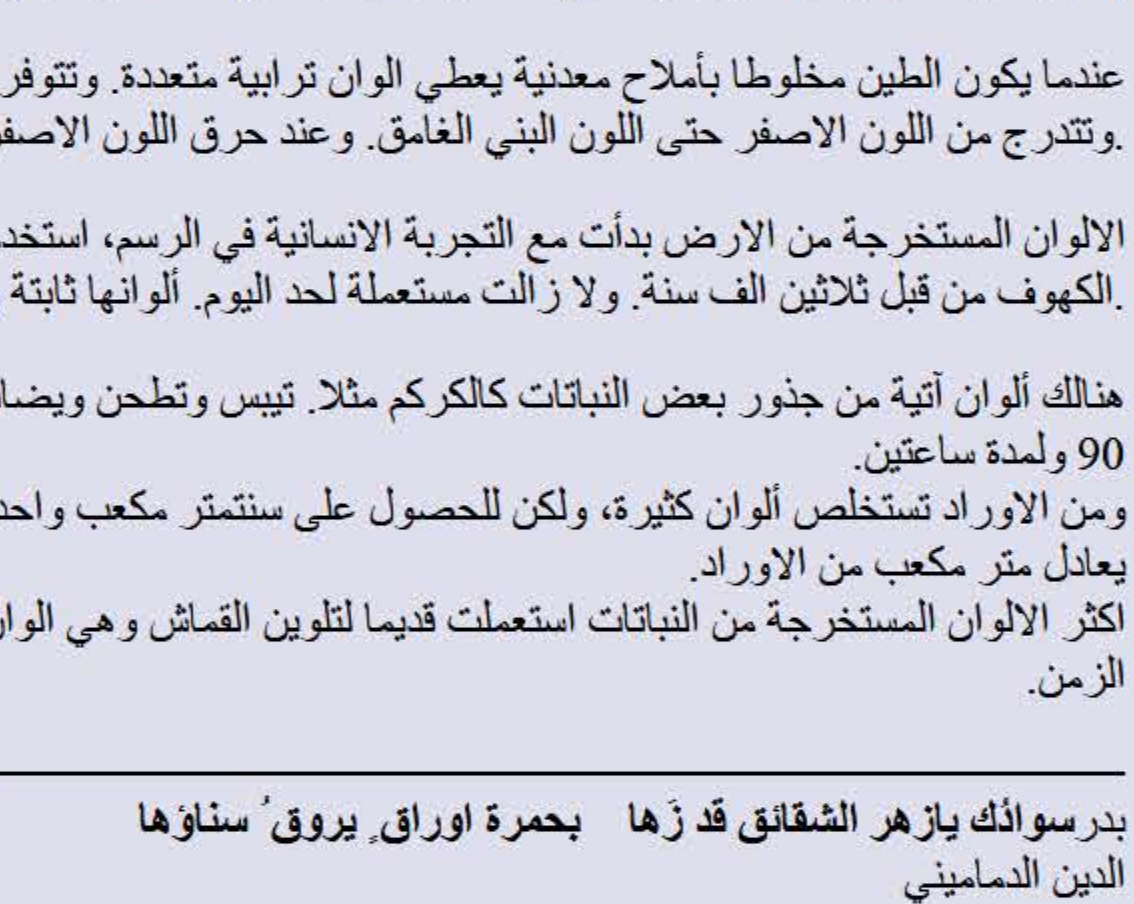

عند تعرض المساحيق الملونة للنور، فانها سوف تستلم بعض الوان المنشور الضوئي. فنرى مادتها الملونة. لذلك لايوجد لون بحد ذاته، فلو نأخذ أي مسحوق ملون ونخلطه مع الزيت سيكون اللون مختلفا لنفس المسحوق مخلوطا بصفار البيض أو مع الصمغ العربي. ثم سيكون مختلفا لو نستعمله على الورق او على القماش، وهكذا ان اختلاف الالوان يعود الى اختلاف موادها الاصلية.

ابو عمر القسطلي**غصون الزبرجد قد أورقت   لنا فضة نورت بالذهب**

الطبيعة قادرة على ان تتحول الى فنان يلون الاشياء، فحيث يوجد الماء تتلون الطبيعة بالألوان المختلفة، مزخرفة بالوان الاوراد واخضرار الاشجار، بينما في الصحراء ترسم الطبيعة مناظرها بألوان ذهبية بسبب الجفاف والشمس الساطعة.

عندما يكون الطين مخلوطا بأملاح معدنية يعطي الوان ترابية متعددة. وتتوفر هذه الالوان في مقالع تحت الارض، وتتدرج من اللون الاصفر حتى اللون البني الغامق. وعند حرق اللون الاصفر لساعات طويلة يتحول الى لون أحمر.

الالوان المستخرجة من الارض بدأت مع التجربة الانسانية في الرسم، استخدمها الانسان في التصوير على جدران الكهوف من قبل ثلاثين الف سنة. ولا زالت مستعملة لحد اليوم. ألوانها ثابتة ولا تتغير بسرعة.

هنالك ألوان آتية من جذور بعض النباتات كالكركم مثلا. تيبس وتطحن ويضاف اليها الشب، وتوضع على النار بدرجة 90 ولمدة ساعتين.
ومن الاوراد تستخلص ألوان كثيرة، ولكن للحصول على سنتمتر مكعب واحد من المسحوق الملون لابد من قطف ما يعادل متر مكعب من الاوراد.
اكثر الالوان المستخرجة من النباتات استعملت قديما لتلوين القماش وهي الوان جميلة ولكنها الوان غير ثابتة مع مرور الزمن.

بدر**سوائك ياز هر الشقائق قد زها   بحمرة اوراق ٍ بروق ٍ سناؤها**
الدين الدماميني

كان الفنان سابقا يعرف أصل الالوان ومصادرها، وكيفية تحضيرها من اجل استعمالها في عمله الفني. وكما ذكرت ان الالوان لها مصادر عديدة، منها النباتي ومنها الحيواني ومنها المعدني. وبعض الالوان كانت نادرة جدا كالازرق والاخضر. ولكن التطور العلمي ساهم في توفيرها كباقي الالوان. ومن هنا تكمن اهمية البحث العلمي في معرفة جوهر المواد، اذ لابد من معرفة المادة وظاهرها وتخيل ما يمكن استخلاصه منها في المستقبل لمعرفة التحولات المهمة على المادة اللونية.
من الوصفات القديمة لتحضير لون أخضر: تطلى صفائح من مادة الصفر بالصابون وتوضع في اناء من الطين مملوء بالخل. يغلق الاناء لمدة خمسة عشر يوما. ثم يفتح وتحرك الصفائح على الخشب، فيتساقط الصدأ، ثم يترك كي يجف في الشمس فيعطي مسحوق اخضر. ويمنع استعمال هذا اللون حاليا لكونه مادة سامة.
ولعمل اللون الابيض، توضع في اناء من الطين صفائح رهيفة من الرصاص، ويملأ الاناء بالخل ثم يغلق لمدة شهر.
وعند فتحه تتساقط ذرات بيضاء توضع في اناء آخر من الطين، وتوقد النار تحته وتحرك الذرات دون توقف فتتحول الى ذرات بيضاء ناصعة، وعند الاستمرار بتحريكها على النار تتحول الى لون احمر.
توفر المعادن الوان عديدة، ففي الارض حيث تختلط الاملاح المعدنية بالتراب وعبر تحولات تمتد زمنيا الى ملايين السنين.
تسبب كثرة المعادن في القشرة الارضية في اعطاء الوان متعددة كالاحمر والاصفر والاخضر، وهي الوان آتية من اختلاط الطين بهذه الاملاح عبر تأكسد مواد متعددة كالحديد.
لتحضير الالوان بسهولة من تراب الارض، تتم بأن يؤخذ التراب ويوضع في الماء ويخلط، وعند ترسب التراب في الاسفل يؤخذ الماء الخابط وينشف تحت الشمس، وما سيبقى من مسحوق ناعم يخلط مع الصمغ فيعطي الالوان. وكلما كان المسحوق ناعما كلما كان اللون جيدا.
حاول الفنان سابقا ايجاد الوان من الارض عبر عمليات كيماوية، بدأت منذ حضارات العصور القديمة. فأستعمل الانسان الالوان الترابية منذ القدم لصبغ الجسد، أو المكان المحيط بالانسان.

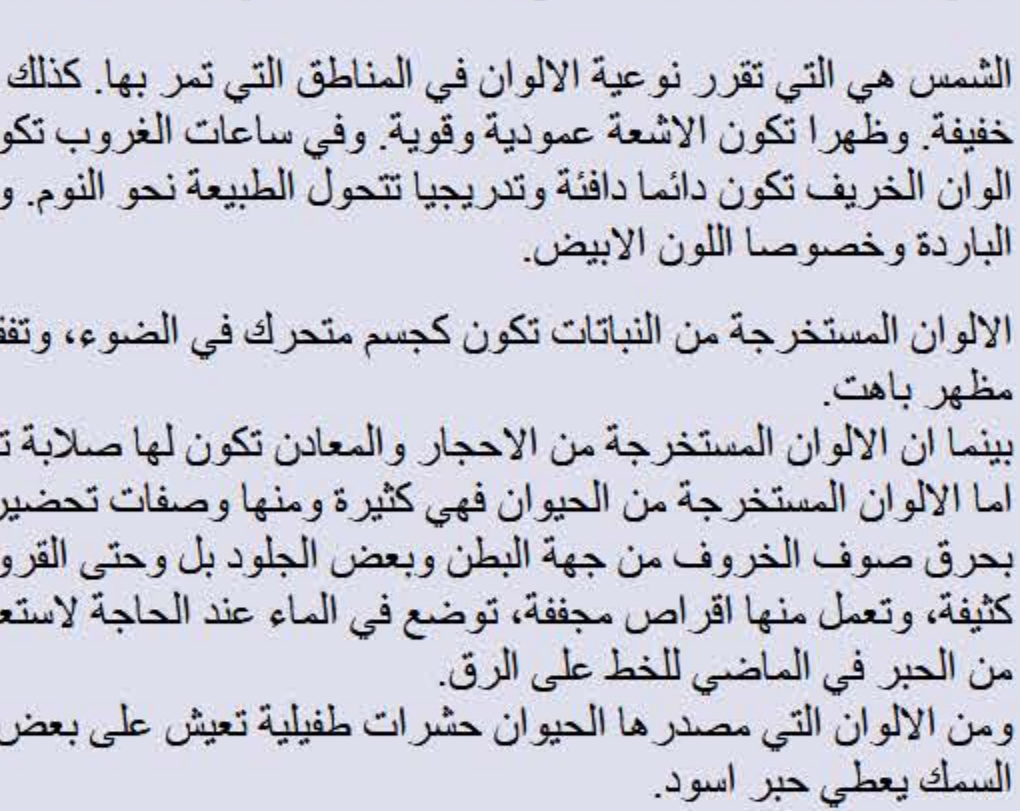

وهذه الالوان الترابية ماهي الا الطين مخلوطا بأوكسيد المعادن. ولازالت هذه الالوان تستعمل حتى يومنا الحاضر، وحلل العلماء مكوناتها فعملوا على تقليدها بصناعة مسحوق ملون وذلك بمزج الطين مع ذرات ناعمة جدا من الاملاح المعدنية. فتوصلوا الى انتاج الوان تشابه الالوان الطبيعية. والوان اخرى غير معروفة سابقا.
بينما ان الاحجار الزرقاء نادرة جدا في الطبيعة، والاخضر الذي هو لون كل الاشجار، لايمكن للطبيعة ان تعطي الفنان هذا اللون الانادرا.

في حلة خضراء نمم وشيها   حوكُ الربيع وحلة صفراء
البحتري

في فصل الشتاء تكون الالوان غامقة، بينما في فصل الربيع نرى ولادة الازهار في مهرجان الالوان البهيجة المتعددة. وفي الصيف يغمر النور الساطع كل الاشكال ويخفي الفروق الرهيفة لألوان الربيع.

الشمس هي التي تقرر نوعية الالوان في المناطق التي تمر بها. كذلك حسب الوقت ففي الصباح تكون الاشعة الذهبية خفيفة. وظهرا تكون الاشعة عمودية وقوية. وفي ساعات الغروب تكون الاشعة حمراء توحي بقرب فصل الخريف. الوان الخريف تكون دائما دافئة وتدريجيا تتحول الطبيعة نحو النوم. وعندما يدخل الشتاء فأنه يغمر الطبيعة بالالوان الباردة وخصوصا اللون الابيض.

الالوان المستخرجة من النباتات تكون كجسم متحرك في الضوء، وتفقد طاقاتها على استلام الضوء تدريجيا فتتحول الى مظهر باهت.
بينما ان الالوان المستخرجة من الاحجار والمعادن تكون لها صلابة تجعلها تقاوم الضوء لمدة زمنية اطول.
اما الالوان المستخرجة من الحيوان فهي كثيرة ومنها وصفات تحضير حبر المدارس القرآنية في دول المغرب، وتتم بحرق صوف الخروف من جهة البطن وبعض الجلود بل وحتى القرون احيانا. فتتحول عند الحرق الى عجينة سوداء كثيفة، وتعمل منها اقراص مجففة، توضع في الماء عند الحاجة لأستعمالها. فتعطي حبر بني اللون. واستعمل هذا النوع من الحبر في الماضي للخط على الرق.
ومن الالوان التي مصدرها الحيوان حشرات طفيلية تعيش على بعض الاشجار وتعطي لون احمر. وهنالك نوع من السمك يعطي حبر اسود.

والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الاصيل على لجين الماء
ابن خفاجة

في عام 1970 اكتشفت بسعادة محل لبيع المساحيق الملونة في احد محلات باريس القديمة. رفوف تغطي الجدران مليئة بمئات القناني الملونة. اسم المحل - الموميا. - وكنت اتردد عليه باستمرار لشراء المساحيق الملونة لتحضير الالوان التي استعملها في خطوطي ولوحاتي. وكان هذا المحل الوحيد الذي تتوفر لدية هذه الاعداد الكثيرة من المساحيق الملونة.
ويعود تاريخ انشاء هذا المحل الى القرن الثامن عشر حيث البداية كانت لبيع البخور والصمغ والالوان.
ومن الطريف ان احد الالوان التي يبيعها يسمى - الموميا - ويعود ادخال هذا اللون في اوربا الى القرن الثاني عشر. وكان استيراد هذه المادة اللونية آتيا من مصر. ويستخرج من الموميا البشرية المحنطة في المقابر الفرعونية القديمة، كما كان يستعمل كدواء للروماتيزم ايضا.

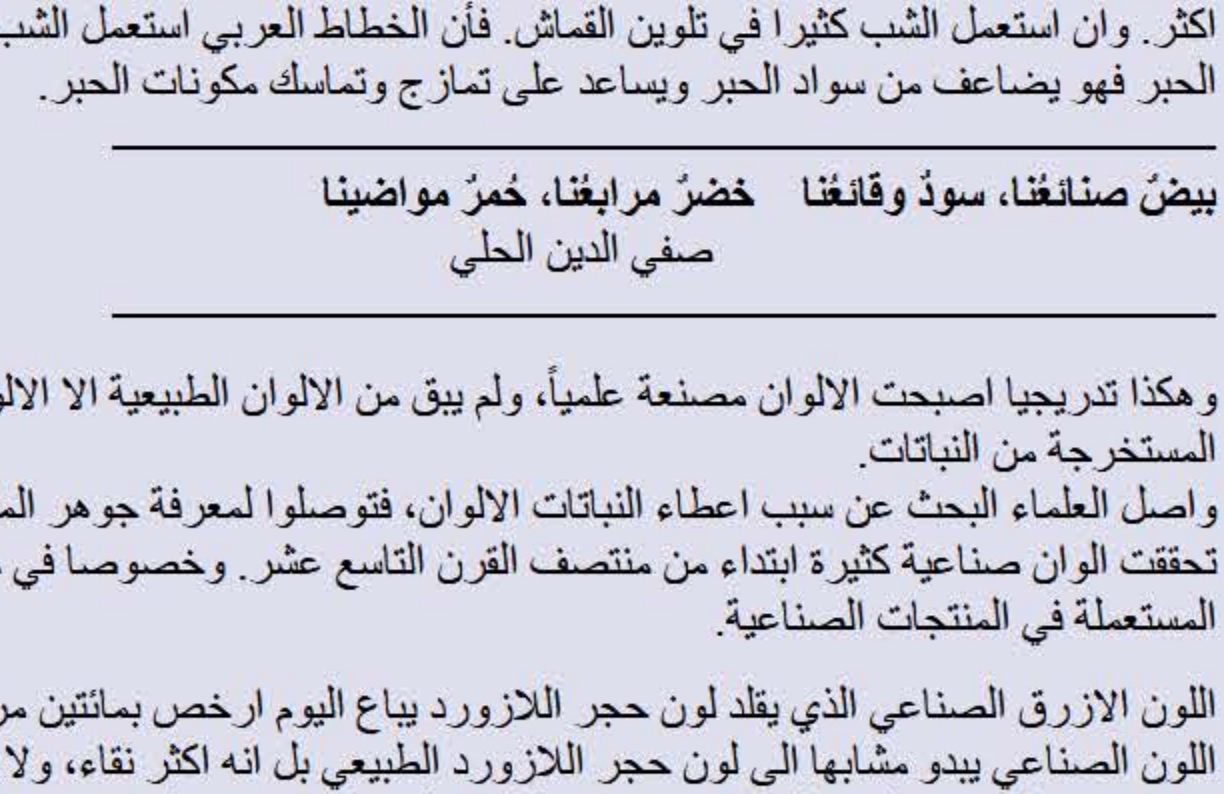

ابتداء من القرن السادس عشر بدأ طحنه وبيعه مع كل المساحيق الملونة الاخرى. ويباع الان مسحوق ملون بنفس الاسم ولكنه تقليد صناعي.
ووضح لي صاحب المحل انه يستورد المساحيق الملونة من اماكن عديدة على الارض، والكثير منها آتيا من الشرق الاوسط وافريقيا والصين كذلك من هولندا وبريطانيا.
ولكن ومع الاسف اغلق هذا المحل عام 1983 وانتقلت كل قناني الالوان الى متحف التقاليد الشعبية في باريس، اذ لم يجد صاحب المحل من يخلفه في هذه المهنة عندما ذهب الى التقاعد. والان توجد محلات لبيع المساحيق الملونة في فرنسا لكنما عدد الالوان عندهم ليس كثيرا ولايتجاوز العشرات.

مع تطور الحياة في المدن، ازداد الطلب لألوان جديدة ومختلفة، وقد سمح التطور العلمي بالبحث عن الوان جديدة. كما ان تطور وسائل النقل ساعد على البحث عن الوان من مصادر بعيدة كالهند والصين، كذلك ان اكتشاف امريكا وفر الوان اخرى غير معروفة.
وتدخل مادة الشب في الكثير من وصفات تحضير الحبر النباتي الاصل. فأن الشب هو من المواد التي تساعد على اخراج الالوان. وكانت مناجم الشب في الماضي قليلة جدا وسببت نزاعات كثيرة حول البحر الابيض المتوسط. ولكن العلماء توصلوا في القرن الثامن عشر الى عمل شب صناعي. ولكن شب روما الطبيعي يبقى هو الاحسن لانه يمتاز بصفاء اكثر. وان استعمل الشب كثيرا في تلوين القماش. فأن الخطاط العربي استعمل الشب ايضا في طلاء الورق وفي وصفات الحبر فهو يضاعف من سواد الحبر ويساعد على تمازج وتماسك مكونات الحبر.

بيضٌ صنائعنا، سودُ وقائعنا   خضرٌ مرابعُنا، حُمرٌ مواضينا
صفي الدين الحلي

وهكذا تدريجيا اصبحت الالوان مصنعة علمياً، ولم يبق من الالوان الطبيعية الا الالوان الترابية، وبعض الالوان المستخرجة من النباتات.
واصل العلماء البحث عن سبب اعطاء النباتات الالوان، فتوصلوا لمعرفة جوهر المادة الملونة. فقلدوها كيمياويا. وهكذا تحققت الوان صناعية كثيرة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر. وخصوصا في مجال تلوين القماش، والالوان المستعملة في المنتجات الصناعية.

اللون الازرق الصناعي الذي يقلد لون حجر اللازورد يباع اليوم ارخص بمائتين مرة من سعر اللون الطبيعي، وان هذا اللون الصناعي يبدو مشابها الى لون حجر اللازورد الطبيعي بل انه اكثر نقاء، ولا يعرف الفرق الا عبر المكرسكوب.
وكانت قد اعلنت في القرن التاسع عشر مسابقة لمعرفة سر مادة حجر اللازورد الازرق، وفاز فيها العالم الفرنسي كيمة عام 1826 ولكن التجارب والبحث الذي قام به لم تكن كاملة. وأستمر تحسين هذا اللون حتى الستينات من القرن العشرين.
ولابد من القول ان سبب الاهتمام بهذا اللون يعود الى الرغبة بأيجاد مادة لجعل قماش الشراشف المصفرة عند غسلها ناصعة البياض، وفي الاخير توصلت المغاسل بوضع ذرات قليلة من اللون الازرق مع الماء اثناء الغسل للقماش فيرفع عنه الصفرة.

فرش الفضاء بأحمر وبأصفر   وبدت لنا حلل الربيع المزهر
ابن وكيع

الالوان الصناعية متعددة وكثيرة، وقد توصل العلماء ابتداء من منتصف القرن العشرين، الى انتاج الوان كيماوية تُستعمل الان بكثرة، ولكنها غير جيدة للعمل الفني. فقد ابتكروا الالوان الاساسية الثلاثة: الاحمر والاصفر والازرق، على شكل سائل ومن خلال خلطها يمكن الحصول على كل الالوان المطلوبة. ويستمر البحث بهدف الوصول الى الوان افضل وبقيمة ارخص. من اجل الاستعمالات الصناعية المختلفة.
يتجه البحث عن العناصر الاساسية التي تعطي اللون وذلك بالبحث عن جوهر المادة المكونة للالوان، لمعرفة كينونتها. وبالتالي تقليدها في الوان مركبة من مواد مشابهة. ويبحث العلماء عن الوان اكثر ثباتا واكثر مقاومة للنور من الالوان النباتية.
وهنالك مجالات جديدة للبحث عن الالوان عبر مواد التصوير الحديثة كالكمبيوتر والات التصوير والسينما والتلفزيون. والتي يمكنها استخدام الاف الالوان. وهذه البحوث تساهم بتقريب العلم للفن ورفع الحواجز بينهما.

عبر الرسم الاسود نرى الاشكال في اللوحة ولكن الالوان تعطي الحياة لهذه الاشكال. وتختلف الالوان في الفن حسب استعمالها. فأن الالوان المائية عندما يمزج معها اللون الابيض تسمى - الغواش - ولكنها لاتسمح بنفاذ النور خلالها ولايمكن رؤية الورق تحت اللون. بينما ان الالوان المائية والتي هي مكونة من مسحوق ملون ناعم مع الماء والصمغ. تسمح بنفاذ النور عبرها ويمكن رؤية الورقة تحت اللون.
ولكن نفس المسحوق الملون لو يخلط بالزيت والصمغ فعند الجفاف تبقى المادة الدهنية بين ذرات المسحوق الملون مما تسمح بدخول النور عبرها.

السلامي**وأشجار محمّلة كؤوساً   تَضاحكُ في احمرارٍ واخضرار**

الخطاط المصري القديم في زمن الفراعنة اكتشف الحبر الاسود، وذلك بمزج سخام الدخان مع الماء والصمغ العربي، وذلك منذ اربعة الآف، وكان للصمغ العربي دور مهم في تحسين الحبر. وفي ذلك الزمن كانت جدران المعابد والمقابر تزخر برسوم ملونة رائعة. ومن كان يحضر الالوان للفنانين هم انفسهم اللذين يحضرون الالوان لاغراض صحية، كالكحل مثلا، والذي يوضع حول العيون لتجنب بعض الامراض، ولكنه لون كباقي الالوان. وتوصل المصريون القدماء الى صناعة الوان اخرى كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر.

مداد المحابر طيب الرجال   وطيب النساء من الزعفران
ابو عبد الله البلوي

ومنذ حوالي الثلاث الآف سنة توصل الاغريق لالوان كيماوية، كمزج ماء العفص مع بعض الحوامض وبأتصال هذا الخليط بالاوكسجين في الهواء يظهر لون غامق يستعمل كحبر. ومن هذه الوصفات اكتشف مايسمى بالحبر السري، اي يمكن الكتابة بمحلول واحد لونه كلون الماء، وعندما يستلم الأخر الرسالة يمرر عليها محلول آخر كلون الماء ايضا فتظهر الكتابة واضحة للقراءة.
واستخدم الحبر السري في العالم الاسلامي قديما ومن نص قديم يتكلم عن هذا الحبر :

... اخترعه ابن المقفع لفضح السفاح، فأشتبه به الخليفة وقتله. ولكن طريقته السرية في تهريب الكلام الحر انتقلت الى القرامطة فحملوها دعوتهم الى الثورة والعدل، ثم بلغت محمد بن علي فدعا كل الزنوج بسباخ البصرة الى كسر الاغلال.
وأنتهى هذا الحبر السري الى اخوان الصفا فدونوا به رسائلهم السرية الداعية الى اسقاط الخلافة العباسية المتهرئة. وكاد المخبرون والوشاة يلقون القبض على الطريقة السرية لاستحضار هذا الحبر، لما داهموا بيت الكاتب ابن الراوندي في القرن التاسع وقتلوه بتهمة الزندقة. الا ان احدى معشوقات الفيلسوف تمكنت من اخفائها بين نهديها واختفت. وهي الان تجوب بلاد العرب متخفية عن عيون السلطان.

والارض برزت لنا في أخضر ٍ في اصفر ٍ في احمر ٍ
ابو منصور الثعلبي

منذ ولادة الالوان الصناعية، اصبحت الالوان جزء من الحياة اليومية، ويكفي اليوم الدخول للمخازن الكبرى ورؤية الوان العلب وكثرتها، اذ لايمكن تخيل هذه المخازن بدون الوان. ولكنها فوضى من الالوان. اذ ان الالوان لها قوانينها وتتطلب تنظيم لها. فهنالك علاقة تأثير بين لون وآخر فالاحمر الذي يجاور الاخضر لايشابه الاحمر الذي يجاور الازرق. هنالك علاقات مواد الالوان وعلاقات رؤية للالوان. ورؤية بصرية حول وظائف هذه الالوان.
ففي بعض رسوم الكتب الايرانية القديمة نرى الخيل اخذت الوان ليست حقيقية بهدف تنظيم الالوان في الصورة وفق قوانين الفن ورغبات الفنان.
ومن نص عن الالوان لاخوان الصفا في القرن العاشر :

... ومن أمثال ذلك ايضا اصباغ المصورين، فأنها مختلفة الالوان، متضادة الشعاع، كالسواد والبياض، والحمرة والخضرة والصفرة، وما شاكلها من سائر الالوان، فمتى وضعت هذه الاصباغ بعضها من بعض على النسبة كانت التصاوير براقة حسنة تلمع، ومتى كان وضعها على غير النسبة، كانت مظلمة كدرة غير حسنة.

عند الخطاط العربي تحتل الحروف الفضاء على سطح اللوحة او على الجدار. وهذا الفضاء هو ما خلف الحروف، ولكنه فضاء في ذهن الخطاط قبل كل شيء. فأن تكن الحروف معروفة بقياساتها، فأن الفراغ غير محسوب مسبقا ويبقى تقديره حسب مهارة الخطاط. وبحسب مدى اتساع تجربته في استعمال الالوان.
فمن الممكن ان توحي اللوحة بمنظر فسيح، كما يمكن ان توحي برقعة صغيرة. وكل هذا يعود لدور الالوان الفعال في خلق اجواء العمل الفني. ومدى سيطرة الخطاط عليها ووعيه لقيمتها في مجال الفن. فهناك الوان توحي بالقرب الى جانب اخرى توحي بالبعد.

عنبٌ اسودُ كأنّ عليهُ حللاً من حنادسِ الظلماء
عبد المحسن الصوري

كانت الالوان الجاهزة نادرة وكان على كل فنان تحضيرها بنفسه مما يعطية معرفة للمادة اللونية، وكان الفنان يجد الوان جديدة لايعرفها الاخرون. ولكن منذ بدأت الالوان الجاهزة تباع للفنانين كان على الفنان بذل جهود كبيرة للسيطرة على الالوان.
ولكن الفنانين الكبار اجبروا الالوان على اطاعتهم لخلق عالم جديد في لوحاتهم وتوصلوا الى توافق الوان لم ترى من قبل. توافق الوان مابين تخيلاتهم ومابين الممارسة الطويلة للالوان. وبهذا الصدد يقول الفنان الفرنسي فرناند ليجيه:
الالوان كالنار ولابد من معرفة كيفية السيطرة عليها.
هنالك الوان دافئة حول الاحمر، والوان باردة حول الازرق. ولكن الفنان القدير يمكنه ان يصل الى توافق مابين الوان متضادة، ويتجاوز القوانين السائدة. فيوظف الفنان الالوان ومعرفته بها لخدمة احساساته. فأن الوان الفنان هي انعكاس لمشاعره الداخلية. وتعكس قوة ارادته وجراته في ايجاد توافق الوان لايمكن تصور توافقها مسبقا.
هنالك علاقة حميمية بين الالوان والجانب النفسي عند الانسان وذكرياته. فان الطبيعة المحيطة بالانسان منذ طفولته لها اهمية في تكوين وعيه بالالوان. فمن ولد في الصحراء تكون ذاكرته ليست كذاكرة من ولد قرب غابة خضراء.

الاحاسيس تولد النغمات اللونية، وهي متوفرة في الوعي واللاوعي اكثر منها في العين. وأن معرفتنا اللاواعية للالوان قد تكون اكثر اتساعا من معرفتنا الواعية.
ذاكرتنا للاحاسيس هي فسيحة، ولكننا لانعرف بالضبط كيف تكونت منذ الطفولة، وفي العمل الفني يحاول الفنان الوصول الى جذور احساساته والتعرف عليها ومعرفة مصدرها ومن ثم وضعها في لوحاته.

وأخيراً اذكر بيت شعري لأبن زمرك، خط على جدار في قصر الحمراء، وهو الذي اعطاني عنوان هذا المقال:

تعدد فيها اللون والنور واحد فأن شئت قل ضداً وأن شئت قل مِثلاَ

حسن المسعود - باريس - 2012